الفصل الثاني:

الإصلاح الإسلامي.. قراءة في نماذج حركية وبرامج إصلاحية

أولاً: في عوامل الانهيار التاريخية

لا يخفى أن ما رصد للنظر في علل الأمة وأسباب انحطاطها من كتب وأبحاث هو شيء مهم دون شك، لكنه يبقى دون المطلوب كماً وكيفاً. ويمكننا أن نختزل شيئاً من ذلك مع ابن عاشور في قوله: "جاء الغزالي يندب موت علوم الدين ويعمل على إحيائها، والطرطوشي يستنكر البدع ويعمل على تطهير الدين منها، والقاضي أبو بكر يبني العواصم من القواصم، والشاطبي يحمل على البدع ويدعو إلى الاعتصام ويأنس بغربته في الثبات على حقيقة الإسلام، إلى الثورة الكبرى التي ظهرت بابن تيمية وأصحابه وآثارها التي استرسلت حتى بدت في الحركة الوهابية أواخر (ق ١٢) والحركات السلفية التي تجاوبت بها ما بين المشرق والمغرب، ثم الدعوة الإصلاحية التي جعل جمال الدين الأفغاني شعارها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، وصدع محمد عبده بأن المسلمين فيما هم عليه لا ينبغي أن يتخذوا حجة على الإسلام. ولكن ينبغي أن يتخذ الإسلام حجة على المسلمين".

وسنحاول هنا الوقوف على نماذج اطلعت بهذا العمل، نستهلها بمجدد القرن الخامس، الإمام الغزالي، مع التركيز على نماذج أخرى حديثة باعتبارها وريثة الرصيد الإصلاحي التاريخي من جهة، وقريبة العهد بما استحدث في الأمة أخيراً من أمراض وأسقام وانحرافات كان الرأس المدبر لها -وما يزال- الاستعمار المادي والفكري الحديث والمعاصر من جهة أخرى.

يسهب الإمام الغزالي في كتابه الإحياء في توجيهه للأحداث التي حصلت بعد الخلافة الراشدة: ".. فلما أفضت الخلافة بعدهم (أي بعد الخلفاء الراشدين) إلى أقوام تولوها بغيراستحقاق واستقلال بعلم الفتاوى والأحكام، اضطروا إلى الاستعانة بالفقهاء وإلى استصحابهم في جميع أحوالهم لاستفتائهم في مجاري أحكامهم. وكان قد بقي من علماء التابعين من هو مستمر على الطراز الأول وملازم صفو الدين ومواظب على سمة علماء السلف، فكانوا إذا طلبوا هربوا وأعرضوا، فاضطر الخلفاء إلى الإلحاح في طلبهم لتولية القضاء والحكومات. فرآى أهل تلك الأعصار عز العلماء وإقبال الأئمة والولاة عليهم مع إعراضهم عنهم، فاشرأبوا لطلب العلم توصلاً إلى نيل العز ودرك الجاه من قبل الولاة، فأكبوا على علم الفتاوى وعرضوا أنفسهم على الولاة، فأصبح الفقهاء -بعد أن كانوا مطلوبين- طالبين، وبعد أن كانوا أعزة بالإعراض عن السلاطين أذلة بالإقبال عليهم، إلا من وفقه الله تعالى في كل عصر من علماء دين الله..

إن الغزالي من خلال هذا النص يختزل الأزمة في المسألة الفكرية، والتي يمكن أن نلاحظ فيها مستويات عدة من مستويات الانحراف والشذوذ عن الخط الفكري الأصيل كما دشنه جيل الصحابة والتابعين وأتباعهم، من حيث القدرة على الفهم والاستمداد من النص.. من حيث منهج الاستيعاب وتداول الرأي والخلاف.. من حيث محاجة الخصوم وإفحامهم.. وغير ذلك.

إن النفس الإصلاحي للغزالي ولمن حمله بعده لم ينقطع لحظة في تاريخ الأمة بالرغم من الظلام الجاثم والخانق للجهل والاستبداد والتعصب... وغير ذلك، بحيث كان يتجدد ويستعيد قواه كلما سنحت الفرصة لذلك، ومن غير حاجة إلى «بعث» الغزالي من جديد، فإننا نجد عصرنا الحديث والراهن لم يبخل بمصلحين ورثوا ذلك النفس وأفادوا من التجارب السابقة. ونقف هنا عند أحد أبرز هؤلاء الأعلام في تعبيره ومحاولة رصده لعلل الأمة، السيد جمال الدين الأفغاني الذي يكاد ينطق بلسان الغزالي نفسه وبألسن غيره من المصلحين ممن تقدموه.

يذهب الأفغاني إلى أن الملة كانت "كجسم عظيم قوي البنية صحيح المزاج، فنزل به من العوارض ما أضعف الالتئام بين أجزائه، فتداعت للتناثر والانحلال، وكاد كل جزء يكون على حدة وتضمحل هيئة الجسم. بدأ هذا الانحلال والضعف في روابط الملة الإسلامية عند انفصال الرتبة العلمية عن رتبة الخلافة، وقتما قنع الخلفاء.. باسم الخلافة دون أن يحوزوا شرف العلم والتفقه في الدين والاجتهاد في أصوله وفروعه كما كان الراشدون رضي الله عنهم. كثرت بذلك المذاهب وتشعب الخلاف من بداية (ق٣ هـ) إلى حد لم يسبق له مثيل في دين من الأديان. ثم انثملت وحدة الخلافة وانقسمت إلى أقسام، خلافة عباسية في بغداد، وفاطمية في مصر والمغرب، وأموية في أطراف الأندلس، وانشقت عصاها، فسقطت هيبتها من النفوس (...) وتقطعت الوشائج بينهم بظهور جنكيزخان وأولاده وتيمورلنك وأحفاده وإيقاعهم بالمسلمين قتلاً وإذلالاً، فتفرق الشمل..".

ويقول الأفغاني في العروة الوثقى: "وتحقيق أهل الحق وقيامهم ببيان الصحيح والباطل من كل ذلك لم يرفع تأثيره عن العامة خصوصاً بعد حصول النقص في التعلم والتقصير في إرشاد الكافة إلى أصول دينهم الثابتة التي دعا إليها النبي وأصحابه، فلم تكن دراسة الدين على طريقها القويم إلا في دوائر مخصوصة وبين فئة ضعيفة. لعل هذا هو العلة في وقوفهم، بل الموجب لتقهقرهم، وهو الذي نعاني من عنائه اليوم".

ويمكن اختزال هذه العناصر في نقاط هي: أصل الانحراف هو الابتعاد عن الدين بأحكامه وشرائعه ومبادئه وقيمه الأخلاقية... وانفصام عرى الوحدة الفكرية في الأمة بانفراط عقدها وتوزعها إلى فرق ومذاهب، وفساد نظام الخلافة والملك، بانفصال السلطتين العلمية عن السياسيَّة، وطغيان الجور وإيثار المصالح الفردية على الجماعية. والنفوذ الخارجي الأجنبي، وما ألحقه من دمار وخراب باقتصاد الأمة ومقوماتها.

وهناك العديد من الكتابات في الموضوع، نخص منها بالذكر رسالتين، الأولى لشكيب أرسلان تحاول الإجابة عن سؤال "لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم؟"، والثانية لجعفر الكتاني "نصيحة" لأهل الإسلام تبين لهم مواطن السقوط وأسباب النهوض. وهما رسالتان متزامنتان، إحداهما بالمشرق والأخرى بالمغرب، وقد كان بين مؤلفيها لقاء بالمدينة المنورة..

والرسالتان من الناحية المنهجية متكاملتان، يغلب على الأولى المنهج التاريخي المقارن، كما يغلب على الثانية المنهج الأثري النقلي. الأولى تقوم على أساس المقارنة بين الوضع الإسلامي (الصدر الأول خصوصاً) والوضع الغربي، مع ذكر عوامل الانحطاط والنهوض متفرقة في أماكن متعددة وغير مرتبة، وقد وضع عناوينها السيد رشيد رضا. أما الثانية، فالعوامل فيها محددة حيث يذكرصاحبها عوامل السقوط فيتبعها بعوامل النهوض مستدلاً على ذلك بنصوص وافرة من الكتاب والسنة وآثار السلف وشواهد وتجارب تاريخية، جعلت الرسالة تكون أكثر ترتيباً وتنظيماً واستيعاباً للمشكلات والحلول.

يذكر الأمير شكيب أرسلان أن "أسباب ارتقاء المسلمين الماضي: كانت عائدة في مجملها إلى الديانة الإسلامية التي دانت بها القبائل العربية وتحولت بهدايتها من الفرقة إلى الوحدة، ومن الجاهلية إلى المدنية، ومن القسوة إلى الرحمة، ومن عبادة الأصنام إلى عبادة الواحد الأحد.."، وأن ضعف المسلمين اليوم راجع إلى "فقدان المسلمين السبب الذي ساد به سلفهم" حيث "لم يبق من الإيمان إلا اسمه، ومن الإسلام إلا رسمه، ومن القرآن إلا الترنم به دون العمل بأوامره ونواهيه.. وذكر من عوامل تأخر المسلمين وانحطاطهم: (الجهل، العلم الناقص، فساد الأخلاق، العلماء المتزلفون، الجبن والهلع، ضياع الإسلام بين الجامدين والجاحدين.." ويتوقف عند نقاط جوهرية في الموضوع، فنجده يفصل كيف "أضاع الإسلام جاحد وجامد"، "أما الجاحد فهو الذي يأبى إلا أن يفرنج المسلمين وسائر الشرقيين، ويخرجهم عن

جميع مقوماتهم.. أما الجامد فإنه مهد لأعداء المدنية الإسلامية الطريق لمحاربة هذه المدنية. محتجين بأن التأخر الذي عليه العالم الإسلامي إنما هو كثرة تعاليمه".

عنده أيضاً أن من أعظم أسباب انحطاط المسلمين في العصر الأخير، فقدهم كل ثقة بأنفسهم، .. وكيف يرجو الشفاء عليل يعتقد بحق أو بباطل أن علته قاتلته. وقد أجمع الأطباء في الأمراض البدنية أن القوة المعنوية هي رأس الأدوية، وأن من أعظم عوامل الشفاء إرادة الشفاء...

ويحصر شكيب أرسلان العلل المتبقية فيما تمت الإشارة إليه: علة الجحود والجمود، وعلة فقدان الثقة بالنفس. أما خلاصة جوابه في النهوض فهو يعتقد "أن المسلمين ينهضون بمثل ما نهض به غيرهم".

أما مع الإمام أبي الفيض جعفر الكتاني، فيمكن اختزال عوامل السقوط وأسباب النهوض عنده كالتالي: اختلاف كلمة أهل الإسلام، بضعف الأخوة الدينية، وترك الاستعداد الحربي، والنصر لا يتأتى من غير استعداد، وترك الجهاد، وإسناد أمور الدين إلى غير أهلها، ومصافاة الكفار واتخاذهم أصدقاء، واتباع عوائد الكفار والتمذهب بمذاهبهم والعمل بقوانينهم، والإضرار بالمسلمين بالتسلط والظلم والإفساد، والاشتغال باللهو والطرب، والإعراض عن العمل بالكتاب والسنة، والتجاهر بالمنكرات، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. هذه هي العلل التي حددها الكاتب، وكلها ناطقة بوضوح بما تعانيه الأمة من أمراض في مختلف مجالاتها بما يغني عن أي تعليق. وبالرغم من كون بعضها قد جاء مكملاً لبعض يمكن دمجه فيه وبالتالي اختزالها إلى علل ثلاث، أو أربع كبرى.

أما الكواكبي فقد عرض كذلك لانحطاط المجتمع الإسلامي في كتابه "أم القرى" أرجعها في تصنيف منهجي إلى ثلاثة أسباب رئيسية يضم كل واحد منها جملة من العلل والانحرافات جعل بعضها أصولاً وبعضها فروعاً، وجعلها في

ست وخمسين سبباً، منها: أسباب دينية (١٣ سبب)، وأسباب سياسية، (٩ أسباب) وأسباب أخلاقية تربوية (١١ سبب).

هذا ما ذكره الكواكبي، مجملاً، ولا شك أن فيه إضافات لعلل جديدة مجملة أو مفصلة عمن تقدمه، وإن كان لا يختلف عنها في طريقة أو منهجية التحديد في شيء.

وننتهي إلى حركة أخرى وريثة بدورها للإصلاح التاريخي الذي تقدمها بما في ذلك "الحركة الإصلاحية السلفية" للأفغاني وعبده، بل تعتبر امتداداً لها على نفس الخط في العموم، "حركة الإخوان المسلمين" مع مؤسسها حسن البنا، إذ ذهب في كتابه مجموعة الرسائل إلى تحديد "عوامل التحلل في كيان الدولة الإسلامية والشعب الإسلامي"، ذكر من أهمها: الخلافات السياسية والعصبية، والخلافات الدينية والمذهبية، والانغماس في ألوان الترف، وانتقال السلطة والرئاسة إلى غير العرب من الفرس تارة والديلم تارة أخرى والمماليك والأتراك وغيرهم ممن لم يتذوقوا طعم الإسلام الصحيح..وإهمال العلوم العملية والمعارف الكونية، وإهمال النظر في التطور الاجتماعي للأمم، والانخداع بدسائس المتملقين من خصومهم والإعجاب بأعمالهم ومظاهر حياتهم والاندفاع في تقليدهم فيما يضر ولا ينفع..

وفي المدرسة نفسها نجد محمد الغزالي يؤكد ما ذكره البنا وغيره من أسباب ويضيف إليها: سوء الفهم للإسلام، وتقديم ما حقه التأخير وتأخير ما حقه التقديم، وشيوع خرافات باسم الدين.. ، ووقوع الخلل الكبير في الثقافة الإسلامية التي هي الغذاء الفكري والروحي للأمة والتي تصنع عقولها وأذواقها وإرادتها.. وجهل المسلمين بالدنيا وهذا ناشئ عن اختلال الثقافة، وانتشار الجبرية في العالم الإسلامي، وتقاليد الرياء في المجتمعات الإسلامية، ووضع المرأة في عصور الضعف.. الذي منعها من التعلم وكل أشكال المشاركة. وذبول الأدب العربي، بالإضافة إلى سياسة المال في المجتمع. والفساد السياسي، ففي الحديث، "إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة".

ويجعل الغزالي من "خطورة الجهل بالآخرين" عاملاً من عوامل الانهيار نفسه. ولإدراك ما حولنا واستجماعاً لشروط النهوض يقترح توفر العوامل التالية: نشاط (خارجي) يقوم على الأسس الآتية:

- سبر الارتقاء الثقافي والإحاطة بالآماد التي بلغها غيرنا حتى نعرف من نخاطب؟ وماذا نقول؟ إدراك المستوى العمراني والصناعي والحضاري الذي يسود العالم من حولنا، فمن الهزل أن تعرض الإسلام أمم متخلفة ينظر إليها غيرها شزراً.. دراسة التيارات السياسية والقوى العسكرية التي حظي بها غير المسلمين..
- نشاط داخلي يتحرك في دار الإسلام ويقوم بما يأتي: محاربة الانحراف الفكري الذي أبعد الأمة الإسلامية عن كتاب ربها وسنة نبيها. وإعادة بناء الأمة الإسلامية على أساس أن الوحي حياة، وأن دراسة الكون أهم ينابيع الإيمان، وأن حسن استغلاله سلاح اقتصادي وعسكري خطير.. وتلاوة آيات الله على أنها منهاج العمل، وتربية الأمة على الأخلاق والتقاليد الظاهرة..وغربلة التراث الإسلامي.

نختم هذه النماذج بنموذج أخير يعبر فيه طه جابر العلواني بدوره عن توجه في الإصلاح وتحديد لمواطن الخلل انطلاقاً من اعتبار "أزمة هذه الأمة هي أزمة فكرية تندرج تحتها سائر الأزمات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية. والأزمة الفكرية إما أن تحدث نتيجة لاضطراب مصادر الفكر، أو اختلال طرائقه أو مناهجه، أو عن كليهما معاً". وإذا كانت حركة الإخوان المسلمين قد آلت إلى نوع من الضعف والمحدودية والتراجع عن كثير من المنطلقات التي كانت مع مؤسسها الأول لظروف موضوعية محيطة بها، فإن رسالة المعهد العالي للفكر الإسلامي كمؤسسة. تكاد تكون المعبر الأول إن لم نقل الوحيد، عن أعمال المصلحين والمجددين ببعث تراثهم والكشف عن مناهجهم، وأيضاً البحث والنظر في علل الأمة والوقوف على ثغراتها باستكتاب الأقلام المختلفة لذلك والسعي نحو تصحيح الفكر السائد ومناهجه عن طريق نظام معتمد في التربية والتكوين..

ففي تأكيده على حدة التدهور والتمزق الذي أصاب الأمة في المرحلة الأخيرة (الحديثة والمعاصرة)، يذهب العلواني إلى أن المرحلة التي قبلها (المتقدمة)، كان وضع التدهور فيها أحسن حالاً بالنسبة للأمة. ويتجلى ذلك عنده في: أن الأمة لم تبحث عن بدائل خارج إطار الهوية الإسلامية.. وأن قوى التجديد تواصلت في ظروف تاريخية مختلفة وتعددت المراكز الحضارية الإسلامية.. ولم تقع مفاصلة أو تمايز كامل بين الشعوب المكونة للأمة القطب..العربية وغيرها..

أما هذه المرحلة التي نحن فيها فقد برزت فيها الظواهر التالية: تمزق الكيان الحضاري الاجتماعي للأمة الإسلامية القطب.. والتخلي عن المنهاج والشرعة الإسلاميين واتخاذ بدائل وضعية.. والارتداد للأصول الحضارية -الجاهلية- قبل الإسلام.. والتمايز والمفاصلة بين العربي وغيره في جسد الأمة.. وقيام دولة إسرائيل بطموحاتها التسلطية.. . والهيمنة الغربية الشاملة على المنطقة في المشرق والمغرب.. بتفتيتها وفرض أنظمة غربية ليبرالية عليها في المجالات كافة.

وفي تحديده للجذور التاريخية للأزمة يذكر عبد الحميد أبو سليمان: تغير القاعدة السياسية.. لتنتهي الأمة إلى قيادة ونظام هو خليط من إسلام وجاهلية.. والفصام بين القيادة الفكرية والسياسية.. ومن مخلفاته: عزل القيادة الفكرية عن المسؤولية الاجتماعية والممارسة العملية.. وجهل القيادة السياسية وحرمانها من وجود قاعدة فكرية تمدها بالفكر السليم.

فهي أزمة فكر لا أزمة عقيدة، حيث ثم الخلط بين العقيدة والفكر وتقديسهما معاً، وحيث ظل العقل المسلم حتى اليوم أسير مفاهيم ومنطلقات تجعله حبيس أخطاء الماضي وانحرافاته. وما لم يتغير منهج التفكير وتصحح منطلقاته، فسوف يبقى العقل المسلم عاجزاً عن النظر الناقد والرؤية النافذة. ويمكن إعادة ترتيب هذه العلل بعد عرض قسط وافر منها مع شخصيات إصلاحية أخرى، روعي في ذلك بعض الإضافات الجديدة التي أملتها في الغالب تحديات ومعطيات الظرفية التي عاشها كل

مصلح. كبعض التحديدات السياسية والمالية والاقتصادية وأنماط من الحكم.. الخ، كما روعي تفصيل لإضافات علل أخرىٰ جزئية ومؤثرة، والتركيز علىٰ جانب العلوم العملية والمعارف الكونية أو "علوم الدنيا" التي تكاد تشكل بدورها شقاً مستقلاً في مسلسل الانهيار والتبعية إلىٰ جانب العلوم والمعارف الدينية والشرعية.

حدد الكواكبي أصل الداء في "الاستبداد السياسي" المنتشر في كل المجالات، وهناك أصول جامعة لهذا الانهيار، أسباب ومظاهر أو نتائج تعكس بمجموعها وضع الانحطاط في الأمة. ويمكن حصر الأسباب في أصلين هما: الابتعاد عن الأخذ بالسنن الدينية، والابتعاد عن الأخذ بالسنن الكونية. ويمكن توضيح ذلك كالتالي:

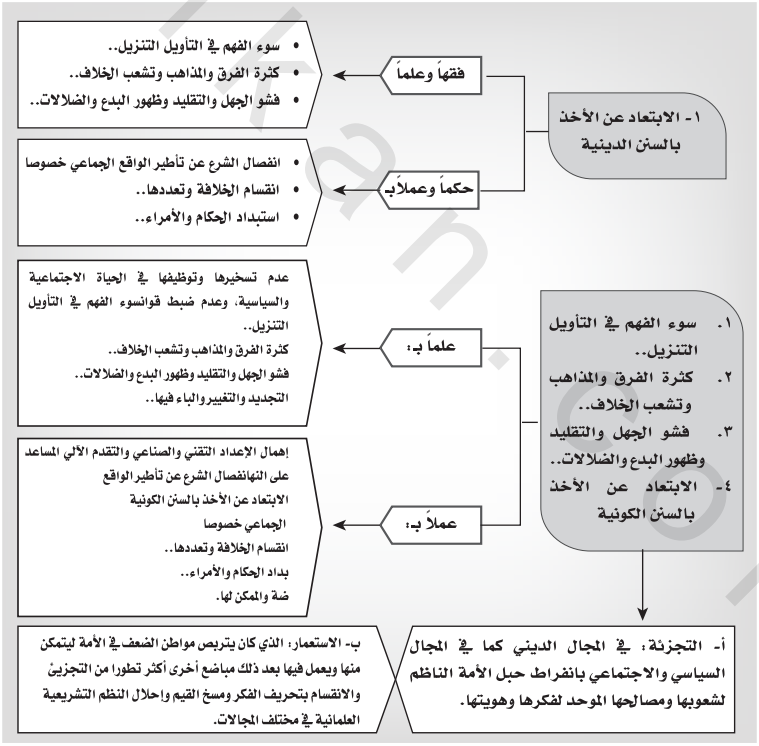

وننتقل الآن إلى النظر في بعض الخطوط الإصلاحية العريضة لبعض الحركات في تاريخ الأمة.

ثانياً: نماذج حركية إصلاحية.. منطلقات ومناهج

إن معظم الدراسات التي تناولت الحركات الإصلاحية تناولتها من زاوية التأريخ المحض لأحداثها ووقائعها وأشخاصها، ولم تتناولها من زاوية البحث السنني الذي يستخلص العبر والقوانين ويفيد من التجارب السابقة للاحقة كما فعلت بعض الدراسات التي سنعتمد، وهي قليلة على كل حال بالمقارنة مع ما ينبغي رصده لهذه التجارب واستخلاصه منها لدعم مسار النهضة والإصلاح والتغيير في الأمة.

ولعل أول تجربة إصلاحية تصحيحية يمكن الوقوف عليها في تاريخ الأمة، هي تجربة الخليفة الراشد الخامس عمر بن عبد العزيز ﷺ. فإن تجربته قد ورثت حملاً ثقيلاً من الانحراف والفساد والابتعاد عن الخلافة على منهاج النبوة.. فكانت فعلاً عملاً إصلاحياً تصحيحاً لوضع مختلف، عمل ينطلق من تصور ومنهج في الإصلاح والتقويم، وإن كان يختلف عن غيره من الأعمال الإصلاحية اللاحقة، في كون القائم به خليفة المسلمين، استجمع سلطات القرار السياسي والعسكري والعلمي، وفي كون الأمة ما تزال حية تنبض بتعاليم الوحي التي ركزتها التجربة الراشدة لقرب العهد بها.

ولننظر باختصار في الجبهات التي عمل من خلالها الخليفة عمر بن عبد العزيز، كما يرى عماد الدين خليل، علماً بأن روح هذا العمل كان متمحوراً حول جملة مبادئ موجهة نستخرجها كالتالي: "الهداية قبل الجباية"، "الدعوة قبل الحرب"، "تسخير الأموال لخدمة المبادئ لا المبادئ لجمع الأموال"، "إيثار المصلحة الجماعية على الفردية، "الانفتاح على الناس وإشراكهم في الاختيار الحر.."، "فتح باب التظلم

للكل ضد أية جهة كانت"، "إشاعة العلم والمعرفة وجعلها قاعدة العمل السليم"، "الحوار والإقناع مع المخالفين حقنا للدماء".

قهر الخليفة عمر بن عبدالعزيز نزعة الاستبداد والتملك، التي لم يسلم منها حاكم في عصور انحطاط الأمة، وكان يختار عماله على أساس الكفاءة والعلم والإيمان والقبول لدى جماهير المسلمين، وحاصر العصبية القبلية: كمظهر من مظاهر التجزئة في الأمة حيث أكد على ضرورة الوحدة بين جميع المسلمين، وكان يرسل إلى عماله يحثهم على التمسك بعرى التوحيد ونبذ كل تعصب ذميم..، وكان يرفع شعار "الهداية قبل الجباية"، ويكتب إلى عماله في ذلك، فيجيئه من عامله على البصرة، أن الناس قد كثروا في الإسلام، وخفت أن يقل الخراج، فيجيبه عمر: فهمت كتابك.. والله لوددت أن الناس كلهم أسلموا، حتى نكون أنا وأنت حراثين نأكل من كسب أيدينا". واعتمد سياسة المبادئ في المال والاقتصاد، من الداخل، نفسه ووجدانه أولاً، وداخل أهله وبيته ثانياً، وداخل بلاطه ثالثاً، ثم ينتقل بعد هذا إلى الخارج لينشر العدل على الجميع.." وأزال كل الضرائب المجحفة التي كانت قد فرضت على الأمة الإسلامية من أجل تنمية موارد الدولة دون وجه حق.. وأتى العشور عن الفئات كافة من غير المزارعين.. واتبع أكثر الأساليب عدلاً في جباية الضرائب المشروعة.. وحرص على تطبيق وتوسيع فكرة الضمان الاجتماعي بحيث تشمل طبقات الأمة كافة رجالاً ونساء وأطفالاً وفقراء وعاجزين ومرضى ومسافرين، مسلمين وغير مسلمين، عرباً وموالي.. وجعل تبادل المعونات المالية بين الأقاليم والمركز أمراً مفتوحاً لسد العجز المالي في أي من الطرفين في حالة حدوثه.. وفتح باب التجارة الحرة في البر والبحر.. وضبط الزكاة، الضريبة، واتبع سياسة زراعية سليمة.. حيث أشار على عماله بالإصلاح والإعمار وإحياء الأراضي وإقامة المشاريع.. وتمسك بسياسته في الحوار والإقناع للمخالفين والخارجين التي مكنته من توفير مبالغ طائلة لمالية الدولة كانت الحكومات السابقة تستنفدها في القضاء

على الفتن والمنازعات الداخلية والحروب. وأوقف بشكل جاد أعمال الابتزاز التي كان يتعرض لها بيت مال المسلمين ابتداء من الخليفة وحتى صغار الجباة، وما بين هذين من حشد هائل من العمال والموظفين..

وكان من نتائج هذا التطبيق أن يأتي عامل الدولة على صدقات إفريقية فيطلب فقراء يعطيها لهم، فلا يجد فقيراً ولا من يأخذ منه، فيشتري بها رقاباً فيعتقهم.. وتشيع بذلك وتطير في الآفاق مقولة: "لقد أغنى عمر الناس".

ساهم عمر بن عبدالعزيز في تمتين قاعدة "العلم والعمل" كما يقول عماد الدين خليل بالتربية والتكوين، حيث أولى قسطاً مهما لهذا الجانب، وقد أمر رسمياً بتدوين الحديث النبوي الشريف، وكانت الدولة تتولى كفالة عدد من العلماء والمفكرين كي تتيح لهم التفرغ الكامل لإنجاز المشاريع الفكرية التي يعكفون عليها اختيارا أو بتوجيه من الدولة.." وكان حريصاً على قرن العلم بالعمل، فإذا كان "العمل دون قاعدة علمية توجيهية لا يأتي بأية نتيجة جادة" فإننا نجد عمراً يدعو عماله وغيرهم إلى أن العلم والعمل قريبان... وساهم كذلك في إفشاء قيم العدل والحرية والرحمة والإنسانية.

إن الوقوف على هذه الجبهات المختلفة والحاسمة في أية نهضة حضارية، بهذه الروح المشبعة بتلك المعاني التي كان الخليفة عمر حريصاً على تعديتها إلى عماله وعامة الناس حرصه على تمسكه بها، لا يمكنها إلا أن تثمر ما أثمرته تجربة عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى.

فما إن توفي عمر بن عبد العزيز حتى عاد مسلسل الانحدار في الأمة لأن من وليها لم يسر على نهجه في التمسك بتلك القيم والمعاني والسير على هديها في سياسة وتدبير الحياة، ويرجح أن وفاته كانت قتلاً بالسم، وأنه كان سيتخذ قراراً حاسماً

بشأن نظام الوراثة في الخلافة بعد محادثة مع الخوارج وإحراجهم له بولاية سليمان ليزيد من بعده، فاستمهلهم ثلاثاً كانت وفاته فيها.

أما تجربة الإصلاح في حركة المهدي بن تومرت التي كانت عنوان دراسة لعبد المجيد النجار، والغرض منها الوقوف على عوامل النجاح منطلقات ومناهج، وعوامل الانحسار والتراجع، وعلى المبادئ والقيم والمعاني الموجهة والفاعلة في التغيير والإصلاح، الباعثة على النهضة والحياة من جديد.

يذهب صاحب الدراسة أولاً إلى تحديد خصال شخصية ابن تومرت التي رشحته للقيام، والتي جعلته يتفاعل بعمق مع الواقع الذي عاش فيه بمظاهره المختلفة، ومنها: العلم وحرية الفكر، والإخلاص والحركية، والفطنة والحنكة، والقسوة والعنف في تغيير المنكر.

وقد انتهى المهدي في تحليل الواقع المغربي إلى أن ما طرأ عليه من الفساد من ميادين مختلفة هي: طائفة الحكام من المرابطين، وطائفة العلماء والفقهاء، وطائفة المنافقين الانتهازيين، أما مضامين التغيير في هذا المشروع فهي تقوم على دعائم ثلاث أساسية: مضمون عقدي، مضمون منهجي أصولي، مضمون سياسي اجتماعي. وسلك في ذلك أساليب ترجع إلى طريقتين أساسيتين: طريقة نظرية استدلالية، وطريقة عملية تطبيقية.

أما منهج التغيير عند ابن تومرت فهو منهج شامل يمكن النظر فيه إلى ثلاثة مناهج متكاملة: منهج تربوي، يقوم على تربية دعوية بتبصير الناس بالمناكير التي يأتونها وحملهم على تركها وتبصيرهم بالمعروف وحملهم على إتيانه، والتنظيم السياسي: يقوم على ترتيب الأتباع في دوائر مختلفة تُكون أربعة أجهزة أساسية تختلف بحسب مهماتها، والمنهج الثوري العسكري: يقوم على ترسيخ وتحبيب عقيدة الجهاد لدى أتباعه، وجعل جهاد المرابطين فرضاً عليهم.. مع إعداد العدة

المادية، وانتقاء الجند الأقوياء والمخلصين واستبعاد الضعفاء والمشبوهين.. حيث وظف خبرته العسكرية الكبيرة هنا.

وقد انتهت ثورة المهدي على يد أتباعه إلى تأسيس دولة شملت كامل المغرب والأندلس وهي دولة الموحدين، وقد بلغت هذه الدولة من القوة والمنعة ومجاهدة النصارى وتوفير العدل والرخاء للأمة مبلغاً عظيماً حتى عدَّها المؤرخون إحدى أعظم الدول الإسلامية... وبالرغم من كل ذلك لم تخل التجربة من أخطاء منهجية أو تصورية، ولنترك صاحب الدراسة يحدد لنا بعضاً من هذه المزالق: فعلى المستوى السياسي أدى مسلك الحكم الوراثي إلى الاستبداد بالرأي وانعدام الشورى، ثم في أواخر الدولة إلى التناحر على الإمارة مما عجل بانحطاطها وانقراضها. فإن كان المهدي قد أقام تجربة المجالس الشورية، فإنها لم تكن تجربة منظرة واضحة المدلول، ولذلك فإنها لم تثمر وعياً عميقاً بالشورى.

وعلى المستوى العقدي، وإن حققت دعوة المهدي الهدف المرسوم من التوحيد والتنزيه فإن "عقيدة" المهدية لم يبق لها في المغرب أثر يذكر. وأما في المجال الأصولي والفقهي فقد كان الأثر الواضح للدعوة بشيوع الاعتناء بالأصول قرآناً وحديثاً حفظاً ودراسة بالشرح والتحليل.. وحدثت حركة فقهية على هذا الأساس نشط فيها الحوار بين المذهب المالكي والمذهب الظاهري، وتطورت الحركة على مستوى التنظير للاستنباط متمثلاً في علم أصول الفقه و مقاصد الشريعة الذي بلغ أوجه على يد الشاطبي..

ومهما يكن فإن عوامل نجاح التجربة ما تزال حية قابلة للعطاء، سواء في شمولية منطلقاتها أو طرحها المذهبي الإصلاحي لجوانب الحياة والفكر المختلفة، أو في عودتها للأصول تصحيحاً وتوضيحاً بالعلم والعمل، أو في مراعاة الناس الخاصة العامة في كل خطاب أو تكليف.

وفي كلتا التجربتين تغيب مسألة التعامل مع الآخر، عن مشروع الإصلاح الذي نهضت به التجربتان وكيف تغيب وهي من منجزات الإسلام الكبرىٰ وإشعاعه الخارجي..

فإن كان المغرب الإسلامي يحقق إنجازات مهمة في قلب البلاد الصليبية، فإن الوضع كان مختلفاً في المشرق الإسلامي الذي تعرض لاجتياح الصليبيين، حيث استولوا علىٰ سواحل الشام وملكوا بيت المقدس، وعلىٰ الرغم من تزامن حركتين قويتين عظيمتين في الأمة، إحداهما في المشرق والأخرىٰ في المغرب، وكانتا علىٰ قدر كبير من الإحكام والتنظيم الداخلي، والقوة القادرة علىٰ إلحاق الهزيمة بالآخر الصليبي، فإن هذا النفس لم يستطع أن يوحد أو علىٰ الأقل أن ينسق في درجات عالية وعميقة بين الطرفين....

وتعتبر الحركة الاصلاحية "السلفية" الحديثة إحدىٰ هذه الحركات في العصر الحديث. حركة الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا التي أفادت من رصيد الحركات التي تقدمتها، كما أثرت في الحركات التي تلتها. فالأفغاني قال: أروني مملكة أو أمة انغمس ملوكها أو أمراؤها بالسفه والسرف، وعم الجهل طبقات الشعب، وتفرقت كلمتهم، فاستكانوا للذل والهوان، لم تسقط تلك الملوك والأمراء عن عروشها، ولم يستعبدها الاستعمار، ويحل فيها الدمار؟! وقد كان الأفغاني يعتقد أن الدول الأوروبية لم تكن بالفطرة أقوىٰ من الدول الإسلامية، وأن الفكرة السائدة عن تفوق إنجلترا علىٰ غيرها لم تكن سوىٰ وهماً، شأنه ككل وهم، يجعل الناس جبناء، فيجر عليهم ما يخشون وقوعه، وقد دلت انتصارات المهدي في السودان علىٰ ما يمكن للمسلمين أن يقوموا به ضد البريطانيين فيما لو استفاقوا من غفلتهم..

إذا أضفنا هذا إلىٰ ما تقدم من وقوف الأفغاني علىٰ علل الأمة الذاتية، أمكن اختزال دعوته في محورين: أحدهما داخلي وهو التحرر الفكري من الجمود والتقليد،

والآخر خارجي وهو التحرر السياسي من نفوذ الاستعمار الغربي الزاحف على المنطقة، والتصدي له بالنهضة الحضارية لمغالبته. إلا أن وسيلة تحقيق هذه الغايات اختلفت بين الأستاذ وتلميذه، ولم يبرز هذا الاختلاف طوال مقام الأفغاني بمصر، وإنما ظهرت ملامحه بعد استقلال محمد عبده بالقيادة، ذلك أن الأفغاني كان ثورياً، أما محمد عبده فكان "إصلاحياً" يرى أن التدرج في الإصلاح هو الطريق الأقوم والأضمن في تحقيق هذه الغاية، وأن التربية المستندة إلى الدين بعد تجديده بواسطة المؤسسات التربوية الجديدة..

كان الأفغاني يركز على العمل الجماهيري كشكل من أشكال الثورة، ويدعو إلى الاشتراك في الحكم الدستوري الصحيح، وإصلاح المجالس النيابية وإقرار نظام الشورى والانتخابات. في الوقت الذي يكاد يغيب فيه الشرط الجماهيري عند محمد عبده في العمل التغييري. فقد كان قليل الثقة في "الجماهير" و "العامة" وأنهم "كالآلات الصماء الموقوفة على الأعمال اليدوية ليس إلا" وأنهم "لا يمنعون تقدماً ويحجزون تمدناً"... وكان جهده منصباً على إحداث مؤسسات تربوية جديدة كدار العلوم، وإصلاح المؤسسات العتيقة كالأزهر والأوقاف والمحاكم الشرعية وغيرها..

ويمكن إجمال دعوته في المحاور التالية، كما نص هو أو استنبط دارسوه: تحرير الفكر من قيد التقليد وفهم الدين على طريقة سلف هذه الأمة قبل ظهور الخلاف، وفهم إصلاح أساليب اللغة العربية في التحرير، في المخاطبات الرسمية، وفيما تنشره الجرائد أو في المراسلات بين الناس.. وفهم التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب.. وما للشعب من حق العدالة على الحكومة.

شملت إصلاحات محمد عبده: الجانب القومي الوطني، وضرورة شعور المواطن بوطنه.. والجانب الاجتماعي، بتنمية الروح الجماعية وتجاوز عيوب المجتمع وإصلاح الاقتصاد الوطني.. والجانب الاعتقادي، بتحرير الإنسان من عقيدة الجبر، وتنبيهه إلى نعمة العقل الذي يسير جنباً إلى جنب مع الوحي.. والجانب

التربوي والتوجيه العام، بمحاربة الحزبية المذهبية والتقليد، والدعوة إلى فتح باب الاجتهاد المواكب لتطور المجتمع، وإصلاح المؤسسات وإحياء الكتب المفيدة..

المسألة التربوية هي جوهر العمل الإصلاحي لمحمد عبده، ولبها عنده الانكباب على معالجة داء "الأنانية" وانحلال معنى «الجماعة» في نفوس الأفراد، "إما بسبب الجهل المطلق، أو بسبب سوء فهم الإسلام والحياة، فضلاً عما ينبغي أن يضاف إلى هذا التعليم من العلوم والصنائع التي تنفع الناشئ في حياته وتجعله لا يقل عن الغربي في سيطرته على الحياة. وقد رسم محمد عبده خطة لمناهج تخريج الدعاة وتخريج المؤلفين وتخريج العلماء الباحثين، ونفذ هذه الخطة في دروسه وتواليفه للخاصة والجمهور وفي إحيائه للتراث القديم.." و"مات وهو صريع الكفاح من أجل الأزهر وكتاب الله".

إن الحركة "الإصلاحية السلفية" كانت بحق منبهاً من المنبهات القوية لفكر الأمة، لمواجهة مشكلاته الداخلية من جهة ومشكلاته الخارجية تجاه الاستعمار من جهة أخرى. ومهما يكن القول في بعض أعمال روادها، فإن المنجز من أعمال الحركة وآثارها يحسم الخلاف حول الدور الإصلاحي الكبير الذي اطلعت به، سواء تمثل ذلك في الآثار التي خلفها الزعيمان -على قلتها- الغنية بالعبر والدلالات ومناهج وبرامج الإصلاح والأخذ بأسباب النهضة.. أو تلك التي أثمرت شخصيات فذة كرشيد رضا، سواء في «المنارين» المجلة والتفسير، أو في غيرها من كتبه وجهوده الإصلاحية.

وأهم ما انفرد به منهج العروة الوثقى في ذلك ثلاثة أمور: بيان سنن الله تعالى في الخلق ونظام الاجتماع البشري وأساليب ترقي الأمم وتدليها وقوتها وضعفها. وبيان أن الإسلام دين سيادة وسلطان وجمع بين سعادة الدنيا وسعادة الآخرة. وأن المسلمين ليس لهم جنسية إلا دينهم، فهم إخوة لا يجوز أن يفرقهم نسب ولا لغة ولا حكومة.

وقد قوي هذا التيار كما يقول عبدالمجيد النجار، إلى أن أصبح تياراً يتبناه الكثير من المفكرين الإسلاميين، وأثمر حركات تكتسي صبغة الشمول فكراً وثقافة واجتماعاً وسياسة، على نحو ما تحقق خاصة في حركة الإخوان المسلمين، والجماعة الإسلامية بباكستان، وهو الذي كان منشأ للحركة الإسلامية الواسعة التي تستقطب اليوم جحافل الشباب في مختلف أنحاء العالم الإسلامي فيما يعرف بـ "الصحوة الإسلامية".

ويتحدث علال الفاسي في كتابه الحركات الاستقلالية عن "السلفية المشرقية"ودخولها إلى المغرب، والمعاني الجديدة التي أصبحت تحملها.. وعما كان لمحمد عبده من اتصال بنخبة من المثقفين بالمغرب العربي كله، ومناقشاتهم بخصوص بعض الفتاوى والمراسلات بينهم..، ونؤكد أن امتزاج الدعوة السلفية بالدعوة الوطنية كان ذا فائدة مزدوجة في المغرب الأقصى على السلفية وعلى الوطنية معاً، ومن الحق أن نؤكد أن الأسلوب الذي اتبع في المغرب أدى إلى نجاح السلفية لدرجة لم تحصل عليها حتى في بلاد محمد عبده وجمال الدين. ويرى أن السلفية في روحها الجديدة استطاعت أن تصوغ نموذج رجل الإصلاح السلفي والوطني والقومي الناهض بمهمة التحرير لوطنه، والتمكين لقيمه ومبادئه. فهي حركة تتناول نواحي المجهود الفردي لصلاح المجتمع، وتتطلب فتح الذهن البشري لقبول ما يلقى إليه من جديد، وقياسه بقياس المصلحة العامة لإرجاع المجد العظيم الذي كان للسلف الصالح في حظيرة الإيمان وحظيرة العمل، وتقوية التضامن بين الجماعة الإسلامية على أساس الإخاء الإسلامي أولاً، والإنساني ثانياً.

ويتحدث رشيد رضا عن عوائق انتشار مدرسة المنار، وأهم تلك العوائق: الدولة العثمانية التي اصطدمت بأفكاره الإصلاحية.. والخرافيون الجامدون -كما سماهم رشيد رضا نفسه- أصحاب البدع والخرافات، ودعاة الجمود والتقليد، والشيعة الذين كان له معهم صلات وجولات، والمتفرنجون، الدعاة إلى الحضارة

الغربية وقوانينها الوضعية، واستبدالها بالقوانين الإسلامية، أو دعاة فصل الدين عن الدولة.. والصليبية والاستعمار. وهنالك ملاحظات نقدية متوجهة إلى منهجها وطريقتها في العمل، منها: انعدام الشمولية في تحديد مواطن الخلل وفي علاجها.. وطغيان الجزئية والنخبوية في الإصلاح، وعدم ضم الجهود إلى بعضها.. وعدم النظر إلى آليات التجديد نفسها، وعدم التعمق في مشكلة الإصلاح بوصفها ظاهرة اجتماعية فكرية.. والتركيز على المظهر أكثر من التركيز على الجوهر..

ولقد نتج عن هذا أن الحركة الإصلاحية لم تستطع تغيير النفس الإسلامية، بل لم تستطع أن تترجم إلى لغة الواقع فكرة (الوظيفة الاجتماعية) للدين، ولكنها نجحت في إزالة الركود الذي ساد مجتمع ما بعد الموحدين حين أقحمت في الضمير الإسلامي فكرة مأساته المزمنة، وإن كان ذلك قد اقتصر على المجال العقلي. فإذا ما أريد للنهضة أن تبرز إلى عالم الوجود فإن علينا أن نواجه مشكلة الثقافة في أصولها.

وأُخذ على الأفغاني اقتصار دعوته على القادة وكبار القوم، دون توجيهها إلى جماهير الشعوب. وأُخذ على محمد عبده اعتماده أسلوب التعليم والتثقيف الوسيلة الوحيدة للنهوض بأعباء الدعوة الإسلامية والتهوين من شأن الأساليب الأخرى.

ثم إن المدرسة السلفية التي كانت مدرسة التجديد الفكري الوحيدة في الإسلام المعاصر، لم تجدد في منهج التجديد أبداً، إن جوهر ما قامت به هو إعادة النظر إلى قيم ومفاهيم إسلامية أصيلة من زاوية حاجات العصر، وبذلك أضفت عليها صفة الجدة والحداثة وقدمت للمجتمع أرضية نظرية مقبولة لقبول وفهم واستيعاب القيم والأفكار العصرية، وهي "لم تراجع التفكير في منهج التفكير نفسه"، و"لم تعد النظر بالمفاهيم الغربية أو الحديثة التي قربت معانيها من أذهان العرب والمسلمين ولا فكرت في تنقيحها"، وذلك "لأنها لم تكن تملك منهجاً نظرياً يختلف عن المنهج التقليدي السائد في العالم الإسلامي في ذلك الوقت". فأخذت المفاهيم العصرية "باعتبارها مكتسبات أو اكتشافات إنسانية وعقلية نهائية.. ولم

تنظر إلى ما يمكن أن تنطوي عليه من محدودية تاريخية أو تناقضات داخلية، ولذلك بقدر ما كانت المدرسة السلفية تفرض نفسها على الفكر الإسلامي، وقد فرضت نفسها عليه بالفعل، كانت تقود إلى إخفاقها التاريخي".

هذه بعض الملاحظات النقدية الموجهة إلى أداء الحركة منهجاً وتصوراً، تصدق من حيث الجملة على أداء الحركة، بالرغم مما يمكن ملاحظته عليها من نقد جزئي يركز على جانب أو جوانب ويهمل أخرى..

ثالثاً: في تقويم التجارب وعوامل انحسارها

إن تجربة الإصلاح في العصر الحديث على الأقل منذ أواخر (ق ١٩) وأوائل (ق٢٠)، باعتبارها وريثة تجارب الإصلاح التاريخية، ما تزال تشكل مرجعاً صالحاً لدعم مسيرة الإصلاح المعاصرة، فمقولاتها ما تزال تشكل أرضية صلبة تعكس بدقة الوضع العربي والإسلامي الراهن، إذ حددت "ثوابت" مرضية في جسم الأمة تنخر كيانها إلى اليوم. بل يمكن القول ومن غير تردد، أنها تحدد "المرجعية القريبة" لبدايات الانحلال والفساد المعاصر في الأمة في مختلف مجالاتها خاصة في احتكاكها بالاستعمار الغربي الحديث. لذا فالإعراض عن تجارب هذه المرحلة في الإصلاح، هو قفز على مرحلة جد حاسمة، وتحولات عميقة في بنى الأمة السياسية والاجتماعية والثقافية.

وهدف دراسة هذه التجارب، الإفادة من إيجابياتها وتجاوز سلبياتها في الفهم والتصور وفي أشكال العمل والتنزيل، وليس فشلها في تحقيق أهدافها وطموحاتها بمانع من ذلك، بل هو من أكبر الدوافع إليه. وسنحاول التركيز بشكل أكثر توسعاً على مراجعات الفكر المعاصر لأهم جوانب القصور والخلل التي وقعت فيها هذه الحركات، وأهم عوامل انحسارها وفشلها، والتي منها: إهمال النظر في سنن وقوانين التغيير، في الاتجاه الإيجابي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟

مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، وفي الاتجاه السلبي في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣]. ويذكر عرسان الكيلاني من معاني الآيتين: أن يبدأ التغيير في محتويات النفس، ثم يعقبه التغيير في ميادين الحياة الخارجية.. وأن التغيير إلى الأفضل أو الأسوأ لا يحدث إلا إذا قام "القوم" مجتمعين وليس "الأفراد" بتغيير ما بأنفسهم، وأن التغيير المثمر يحدث حين يبدأ "القوم" بقسطهم من تغيير ما بأنفسهم، فإذا أحسنوا هذا التغيير التربوي والفكري تبعه التغيير المثمر في (المجالات الأخرى).. "واستنتج استنتاجين: أن فترات القوة والمنعة في التاريخ الإسلامي إنما ولدت حين تزاوج عنصران هما: الإخلاص في الإرادة، والصواب في التفكير والعمل.. ويذكر الكيلاني جملة من "القوانين" التاريخية وتطبيقاتها، منها: الولاء للمبادئ كما تقدم، المراجعة التربوية الشاملة الجريئة والصريحة أمام فشل محاولات الإصلاح، وأن يتولى فقه الدين أولو الألباب النيرة والإرشادات العازمة النبيلة، وإحكام خطوات عرض الدين وتطبيقه حسب نظام خاص ومنهجية معينة، تجاوز الفئوية والنخبوية، وقرن الإخلاص بالقدرة والمهارة في تعبئة الموارد والقوى البشرية، والتدرج والتخصص وتوزيع الأدوار في العمل الإصلاحي، ونقل النظري إلى مجال العمل وتجاوز المنطق التجريدي، ومراعاة قوانين الأمن الجغرافي".

ومن أهم خصائص الفكر الإسلامي السليم الذي ينبغي أن يواكب ويؤطر العمل الإصلاحي: الفهم الصحيح لمسائل العقيدة والشريعة الإسلامية لابد أن يستند إلى القرآن الكريم والسنة النبوية. وأن تيارات الفكر الإسلامي القديم اجتهادات جابهت الصراع الفكري في زمانها، وليس من المصلحة اليوم إحياؤها لأنها ستعيد التمزق والفرقة إلى أجيالنا الجديدة. وأن الفقه الإسلامي فقه متجدد، والانطلاق في بيان مذهبية الإسلام في الكون والحياة والإنسان ينبغي أن يكون انطلاقاً موحداً قائماً على أساس الفهم المعتمد على القرآن الكريم والسنة النبوية

الشريفة.. وفهم السنن الإلهية في الكون، واستغلالها لصالح إنشاء الحضارة، والإفادة من العلوم والتقنيات والنظم المعاصرة.. ومحاربة البدع والعقلية الخرافية والتواكلية المميتة، التي حطمت قوى الحركة، والتغيير في حياة المسلمين.. وعدم الاكتفاء بدراسة الشريعة الإسلامية دراسة مجزأة، بل دراسة المفاهيم الكلية في النظم العامة في الشريعة كنظام الحكم والاجتماع والاقتصاد.. كبدائل إسلامية عن الأنظمة الغربية المهيمنة.. ومحاربة القوى الاستعمارية المتنوعة.

آفة "الجزئية" أو "التجزيئية" في الفكر والعمل

وهي من الانحرافات التي منيت بها الأمة الإسلامية، واتخذت أشكالاً مختلفة عبر التاريخ، والقاسم المشترك لهذه الانحرافات كما يقول محمد عمارة يتمثل في النظرة التجزيئية إلى الإسلام كوسيلة لتحقيق مصالح فئة معينة. ولعل من أسباب إخفاق حركة الإسلام في تحقيق الإصلاح الداخلي والعز الخارجي، هو أنها لم تجعل منهج التجديد شاملاً شمول الدين التوحيدي، وعدم إحاطتها "بجميع الخصوصيات الذاتية لطبيعة بناء وتركيب هذه الأمة"، وفي كون التجديد أو الإصلاح الذي تقوم به جزئياً، ... في حين يقتضي التجديد "إعادة الصلة بالأصول البانية نفسها (القرآن والسنة) وقراءة الكون وسننه الحاكمة فيه..".

آفة النخبوية في الفكر والعمل

فالفكرة إنما تنجح.. كما في منهج وفكر حسن البنا إذا قوي الإيمان بها، وتوفر الإخلاص في سبيلها، وازدادت الحماسة لها، ووجد الاستعداد الذي يحمل على التضحية والعمل لتحقيقها، ولا يتحمس الجمهور لمساندة أي تيار كما يقول عبدالله النفيسي إلا إذا تحقق فيه شرطان: الأول: أن يفهم الجمهور مقاصد التيار وأهدافه، والثاني: أن يجد الجمهور لدى التيار حلاً لمشكلاته الحقيقية التي يعاني منها...

كان الشرع حريصاً على تأكيد شرط "الجماعة" في معظم تشريعاته، ولنا أن نتصور ما يصيب الدين من تعطيل لو تخلت مجموعات الأمة عن إنجاز الفروض الكفائية التي تنتظم أكثر ما تقوم به الحياة في المجال الاقتصادي والثقافي والاجتماعي. وقد شرع في الإسلام مبدءان: مبدأ الخلافة التي هي جمع بين الدين والدولة، ومبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فالأمة الإسلامية عبر تاريخها تمارس صلاحية جماعية في الإشراف على إنجاز الأحكام الشرعية في كثير من ميادين الحياة، إلا أن هذا الوضع اختلف في الدولة الحديثة.

العامل الخارجي وقوة تأثيره

وهو «العقبة الخارجية» المتمثلة في «تفوق الدول الكبرى الأوروبية وتحكمها في عملية الاستنهاض المنشودة، وقرارها بالتدخل العسكري حين يتم تجاوز السقف المسموح به..» وهي –حسب منير شفيق – تعدل تلك العقبات جميعها، وعنده أن تجارب الإصلاح.. لم تسقط بفعل نواقصها الداخلية، أو صراعها مع الداخل أو اهترائها الداخلي، وهذه العلة ما زالت قائمة وستهدد مصير أية حركة إصلاح مهما كانت مرجعيتها وهويتها وبرنامجها.